تيمات القصّة القصيرة الجزائريّة

Themes of the Algerian short story

نصيرة بليليطة *

تاريخ الإرسال: 2020/ 01/23	تاريخ القبول:2020/04/27	تاريخ النشر:2020/12/30

الملخص:

يسعى هذا المقال إلى دراسة تيمات القصّة القصيرة الجزائريّة، وتبيان الظروف السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، الّتي أسهمت بطرق شتّى في تشكيل المتخيّل القصصي في هذا المجال، كما يهدف إلى مقاربة تجربة القاص الجزائري، الّتي تترجم الراهن السياسي والاجتماعي والإبداعي، فالقصّة القصيرة الجزائريّة أقرب جنس أدبي إلى حياة النّاس، إذ استطاعت حصر مشاكل المجتمع و التّعبير عن آلامه وأماله بفضل ما حملته من فنّيات، محاولة إبراز مساوئه قبل محاسنه، فعالجت العلّة أو على الأقلّ نبّهت إليها من خلال التّوفيق بين الراهن والماضي والمستقبل.

ونظرا لأنّ الحديث عن موضوع "تيمات القصّة القصيرة الجزائريّة" من الموضوعات الشائكة الجوانب، والمتشعبة العناصر أيّما تشعب؛ لأنّه يتناول أزمنة الإبداع المختلفة، فسنحاول جمع شتات هذا الموضوع وعرض تيماته عرضا يكشف عن خباياها كما وردت عند أشهر القصّاصين الجزائريين.

الكلمات المفتاحية: تيمات، القصّة القصيرة، الراهن، القاص الجزائري،المتخيّل.

Abstract:

This article seeks to study the themes of the Algerian short story, and to show the political, social and economic conditions that contribute in various ways to shape the narrative imaginary in this field, it also aims to approach the Algerian storyteller experience which translates the current political, social and creative matters.

المؤلف المرسل: **نصيرة بليليطة** nacira.belilita@univ-alger2.dz

*جامعة الجزائر (2)، nacira.belilita@univ-alger2.dz

The Algerian short story is the closed literary trend to the life of people as it can relate the society problems and express its pains and hopes.

Since talking about the subject of the "Themes of the Algerian short story" is one of the thorniest and most complex issues, because it deals with the different times of creativity, we will try here to bring together the dispersed elements of this subject and to present its themes so that its secrets will be revealed as they were recounted by the most famous Algerian storytellers

***Key words**: Themes, short story, current, storyteller Algerian, imaginary.*

*** *** ***

1. مقدمة:

لا يختلف اثنان أنّ علاقة الأدب بالواقع قديمة قِدم الأدب نفسه، وقد حاولت نظرية الأدب توضيح هذه العلاقة عندما أثبتت أنّ «الأدب نشاط إنساني ذو قاموس اجتماعي يتّخذ وسيلة له اللّغة الّتي هي وليدة المجتمع»[1].

ويعدّ فنّ القصّة القصيرة الجزائريّة أبرز الفنون الأدبيّة رواجا ونضجا في الأدب الحديث، خاصّة أنّه عالج منذ بداياته الأولى موضوعات عديدة، ساير فيها مختلف التحوّلات السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، الّتي مرّت بها الجزائر منذ الاستقلال إلى يومنا هذا.

نسعى من خلال هذا المقال إلى التعرّف على أهمّ تيمات القصّة القصيرة الجزائريّة من خلال الإجابة عن الإشكالية الرئيسة الآتية: ما هي أبرز التيمات الّتي عالجتها القصّة القصيرة الجزائريّة؟

لقد استطاعت القصّة القصيرة الجزائريّة الغوص في واقع المجتمع ومحاولة فهم الصِّراع القائم فيه، فقد بدا لنا من خلال خلال قراءتنا للنصوص القصصية -محلّ الدِّراسة- أنّها عالجت العديد من قضايا المجتمع ومشكلاته، ومن أهمّها: الفقر، البطالة، الهجرة، السكن...وعليه تهدف الدِّراسة إلى:

- تسليط الضوء على القضايا السياسيّة والاجتماعيّة في المجتمع الجزائري.
- مقاربة تجربة القاص الجزائري، الّتي تترجم الراهن السياسي والاجتماعي والإبداعي.

ISSN 2437-0819 *EISSN: 2602-6333*

اتّبعنا في هذه الدِّراسة المنهج التّاريخي عند الحديث عن نشأة القصّة القصيرة الجزائريّة، بالإضافة إلى الاستعانة بآلية التّحليل والوصف، الّتي سمحت لنا بتتبّع أهمّ موضوعات القصّة القصيرة الجزائريّة.

2. نشأة القصّة القصيرة الجزائريّة

نشأت القصّة القصيرة الجزائريّة متأخِّرة بالنِّسبة لنظيرتها في المشرق العربي، ففي «الوقت الّذي كان من الممكن أن تستفيد القصّة الجزائريّة من القصّة العربيّة تأخّرت إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى بسبب تأخّر الثقافة في الجزائر»[2]. وقد عدّد الدارسون والمتخصِّصون أسبابا كثيرة لذلك، يقول "عبد الله الركيبي": «نشأت القصّة القصيرة الجزائريّة متأخِّرة بالنِّسبة إلى القصّة في العالم العربي، نتيجة وضع خاص وظروف عرفتها الجزائر دون غيرها من الأقطار العربيّة، وقد أحاطت هذه الظّروف بالثقافة العربيّة في الجزائر فأخّرت نشأة القصّة»[3]، وكان المستعمر الفرنسي العائق الأكبر، والسّبب الأوّل في هذا الحصار المفروض على ثقافتنا العربيّة في الجزائر، فلم يكن «بإمكان القصّة الجزائريّة أن تولد وتنمو ولادة ونموّا طبيعيين في بلد صبّ فيه الاستعمار على اللّغة العربيّة والثقافة العربيّة كل ما في جعبته من وسائل الضّغط والقهر لمحوها والقضاء عليها. لهذا كان طبيعيّا أن تتعثّر القصّة في نشأتها وتطوّرها»[4].

لم يستطع الدارسون تحديد البداية الفعليّة للقصّة القصيرة الجزائريّة على الرّغم من الأعمال، الّتي نُشرت في المجلاّت والصّحف، فقد ذهب "عبد المالك مرتاض" إلى أنّ قصّة (المساواة - فرانسوا والرشيد) لـ "محمّد السّعيد الزاهري" هي أوّل قصّة جزائريّة، وأكدّ ذلك بقوله: «إنّ أوّل محاولة قصصيّة عرفها النثر الحديث في الجزائر، تلك القصّة المثيرة الّتي نشرت في جريدة الجزائر في عددها الثاني»[5]، وذلك يوم الاثنين 20 من محرّم 1344هـ الموافق لـ 10 من أوت 1925م[6].

أمّا "عبد الله الركيبي" فذهب إلى أنّ القصّة القصيرة ظهرت في أواخر العقد الثالث من القرن العشرين، يقول: «فوجدت أنّ بدايتها الأولى ترجع إلى أواخر العقد الثالث حيث ظهرت في شكل المقال القصصي الّذي هو مزيج من المقامة والرواية والمقالة الأدبيّة»[7].

وذهبت "عايدة أديب بامية" إلى أنّ أوّل قصّة قصيرة هي (دمعة على البؤساء)، الّتي كتبها "علي بكر السلامي"، ونشرتها جريدة (الشهاب) في عددها الصادرين يوم 18 و28 من شهر أكتوبر عام 1926م[8].

وفي هذا المقال لسنا بصدد تغليب رأي على آخر، بل ارتأينا أن نجمع بين كلِّ هذه الآراء، دون إصدار حكم يؤرّخ لبدايات هذا الفنِّ. لكن يكاد الإجماع يكون حول «قصّة المساواة فرانسوا والرشيد لمحمّد السّعيد الزاهري، الّذي يعدّ أوّل من بذر بذرة القصّة الجزائريّة العربيّة الحديثة، فهو أوّل كاتب جزائري تطبع له مجموعة قصصية، عنوانها "الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير" عام 1928م»[9].

إنّ القصّة الجزائريّة القصيرة «لم تظهر في واقع الأمر بصفتها شكلا أدبيّا فنيّا يفرض وجوده إلاّ ابتداء من بعض محاولات الأديب المعروف رضا حوحو الّذي بدأ يكتب في الثلاثينات» من القرن العشرين[10]، فهو الّذي أعطاها مكانة خاصة وثبت وجودها إلى جانب "عبد المجيد الشافعي"، و"أحمد بن عاشور" ، و"محمّد بن العابد الجلالي"، و"محمّد السعيد الزاهري"...

3. تيمات القصّة القصيرة الجزائريّة

1.3 القصّة القصيرة الجزائريّة والواقع السياسي:

يعدّ موضوع الكفاح الوطني وتصوير صمود الشعب الجزائري وبطولاته أمام قوى الاستعمار من أبرز الموضوعات، الّتي تناولها القصّاصون في أغلب قصصهم إن لم نقل الكل، فقد كانت الثورة التّحريريّة مرحلة الانطلاق الفنّي للقصّة القصيرة، فمرحلة «التّأسيس في خضمِّ الثورة أعلنت ميلاد قصّة قصيرة جزائريّة مصبوغة بطابع الثورة في كثير من مضامينها»[11]، حيث«أدّت الثورة المسلحة إلى ثورة شاملة في الفكر والسياسة والمجتمع»[12]، «بل كانت الطفرة الّتي نقلت القصّة من الموضوعات الماديّة المستهلكة إلى المضامين الثورية المنفعلة بالواقع الجديد، فالقصّة الجزائريّة لم تتضِّح فعلا ولم تتوفر لها عناصر الفنِّ إلاّ أثناء الثورة وبسببها»[13]، يقول "محمّد مصايف": «إذا بحثنا

عن الحدود الفنّيّة لهذا الجنس ألفينا الحياة الاجتماعيّة والاهتمامات القوميّة تطلّ جميعها على القارئ الواعي من كلّ سطر من سطور القصّة»[14].

فقد فتحت الثّورة مجالا أرحب لكتابة القصّة القصيرة وساعدت على التخلّص من المواضيع القديمة الّتي كانت تطبعها الصبغة الإصلاحيّة، وظهرت موضوعات جديدة، تتحدث عن الثورة والحرب وآثارهما على الفرد والمجتمع وعن الحريّة والاستقلال، ومناهضة الاستعمار وزرع الأفكار القوميّة، وكسر الركود الاجتماعي، وغسل الذهنيات من الخرافات والمعتقدات، الّتي شجّعتها الإدارة الفرنسية وأعوانها من العملاء، الّذين اندّسوا في صفوف الشعب، رغبة في إضعافه.

وقد ظهر أثناء الثورة التّحريريّة عدد من الكتّاب يعود إليهم الفضل في تطوير الفنّ القصصي الجزائري الحديث، من بينهم الكاتب "محمّد السعيد الزاهري"، الّذي طرح في قصته (المساواة فرانسوا والرشيد) قضية «المساواة السياسيّة في الجزائر بين الجزائريين والفرنسيين»[15]، إذ صوّر لنا الصِّراع القائم بين شخصية "الرشيد" الجزائري وشخصية "فرانسوا" الإسباني، ذو الجنسية الفرنسية، اللّذان يكبران معا ويتعلمّان في مدرسة واحدة مبادئ الثورة الفرنسية، الّتي يؤمن بها "الرشيد" أشدّ الإيمان، لكنّه يصطدم بجدار الواقع، عندما يلتحق هو و"فرانسوا" بالعسكرية الفرنسية، فيلاحظ تفوّق زميله في الرتب العسكرية، بينما يبقى هو جنديا بسيطا، و هو ما يدفعه إلى اليأس ثمّ الانتحار[16].

كما حاول الكاتب "أحمد بن عاشور" في نتاجه القصصي الممتّد من سنة 1940 إلى سنة 1956م التّعبير عن الواقع بكلّ تفاصيله وتعقيداته، من خلال تناوله لمختلف الموضوعات الإصلاحية ذات الطابع الثوري. ففي قصّة (الرحلات والدب الأبيض) ركّز على ضرورة إيقاظ الشعب الّذي يحتاج إلى من يفتح فيه روح المقاومة[17].

أمّا "محمّد بن العابد الجلالي" فقد جاءت أعماله لتؤرّخ للثورة التّحريريّة من خلال رصده لمختلف التغيّرات الحاصلة في المجتمع الجزائري منذ الثورة المسلحة إلى غاية الاستقلال، حيث صوّر لنا في قصّة (الصّائد في الفخّ) قصة حبٍّ بين شاب وفتاة جزائريّة تنتهي بزواجهما، حاول من خلالها تسليط الضّوء على أوضاع الجزائريين في ظلّ

الاستعمار، وطرح في قصّة (السّعادة البتراء) قضايا مختلفة كقضية «الزّواج المتكافئ على أساس الحبِّ والتّعارف، كما أعطت صورة للحالة الاجتماعية الّتي كثرت فيها البطالة بسبب سيطرة الإدارة الاستعماريّة على الوظائف»[18]، وانتقد في قصّة (القطار) الاستعمار الفرنسي وأثاره اجتماعيّا واقتصاديّا وثقافيّا.

إنّ تناول "الجلالي" في قصصه لموضوعات جديدة كانت محظورة في عهده بأسلوب فنّي متميّز، جعل الكثير من النقّاد والدارسين يعتبرونه رائدا للفنِّ القصصي في الأدب الجزائري الحديث، من حيث «جودة كتابته، وعمق تفكيره وروحه النّقديّة، ومرحه وموقفه الجريء إزاء السلطات الفرنسية والمجتمع الجزائري التّقليدي»[19].

يعدّ الكاتب "أحمد رضا حوحو" من أبرز الكتّاب الّذين عرُفوا بأفكارهم التحرريّة والإصلاحية وحبّه لوطنه، حاول من خلال أعماله القصصيّة تجسيد هموم المواطن الجزائري وهمجية الاستعمار الفرنسي في حقِّ الشعب الجزائري، من خلال «كشف ورصد وتحليل مختلف المظاهر الاجتماعيّة المزريّة والمتردّية، فتصدّى لها بالنّقد اللاذع أحيانا، وقد دعا الأدباء والنّقاد الالتحام بالواقع وتسليط الضّوء على مختلف العيوب والظّواهر والأمراض الاجتماعيّة السلبيّة الفاسدة»[20].

حاول في قصّة (مع الحمار الحكيم) فضح بشاعة الاستعمار والكشف عن سلبياته، وتجلّى ذلك في ثنايا الحوار قائلا: «وأين هذا التساوي وأنتم تنظرون إلينا كشعب منحط في حاجة إلى التّربية والتّعليم؟ ولكن مع الأسف تتجلّى هذه التّربية في استغلالكم لبلادنا...»[21] ، ويوجّه هذا الرّأي للكاتب الغربي، الّذي كان يدعّي أنّه يكتب عن الشرق، ليبيّن محاسن حضارتهم ويعالج مشاكلهم ليقرّب بينهم وبين الغرب.

ومن الكتّاب المعاصرين الّذين دوّنوا وقائع الثورة وعبّروا عن المعارك، الّتي خاضها المجاهدون الجزائريون ضدّ المستعمر أولئك الّذين تحدّث عنهم "عبد المالك مرتاض" في كتابه الموسوم: (القصّة الجزائريّة المعاصرة)، وهم "عبد الحميد بن هدوقة" في مجموعته القصصيّة (الأشعة السبعة)، و"أحمد منور" في (عودة الأمّ)، و"مصطفى فاسي" في (عندما تكون الحريّة في خطر)، و"الحبيب السّائح" في (البيت الصّغير). وممّن عايش

الثورة ووقف عليها معظم نشاطه الإبداعي نذكر: الكاتبة "زهور ونيسي"، الّتي كانت الثورة التّحريريّة رافدا مهمّا استقت منه مضامينها القصصيّة، يؤكّد ذلك قول "عبد الله بن الحلي": «يعدّ موضوع الثورة والمعارك، الّتي خاضها جنود جبهة التّحرير في معاركهم مع الجيش الفرنسي، من الموضوعات الأثيرة عند زهور ونيسي، وقد أدّى هذا الاهتمام إلى تكرار بعض الشخصيات والمواقف عندها، وإلى محافظتها على موضوعاتها القديمة، كاهتمامها بإبراز دور المرأة في حرب التّحرير»[22].

فمجموعتها القصصيّة (الرّصيف النّائم) -المكوّنة من سبع أقصوصات (عقيدة وإيمان، فاطمة، مازلنا نقسم، خرفية، الرّصيف النّائم، لماذا تخافي يا أمّي، زغرودة الملايين)- أحد النماذج الشاهدة على العلاقة الوطيدة بين القصّة القصيرة والثورة التحريريّة، حيث تدين فيها ممارسات الاستعمار الفرنسي، وتصوّر لنا مأساة الشعب الجزائري وآلامه.

ففي قصّة (فاطمة) استطاعت الكاتبة أن تنقل إلينا دور المرأة في حرب التّحرير، ومشاركتها في الثورة، بكلّ ما فيها من وحشية وقسوة ومعاناة.

أمّا في قصّة (مازلنا نقسم) صورّت لنا الكاتبة الحقائق المريرة الّتي خلفّها الاستعمار، والّتي ظلّت راسخة في ذهن الصّغير والكبير.

وعبّرت لنا من خلال قصّة (الرّصيف النّائم) عن الواقع المرير، والحياة القاسية الّتي عاشتها "وردية"، بعد استشهاد زوجها وبقيت أرملة لها ثلاثة أولاد، فأرغمتها ظروف الحياة على الخروج للبحث عن عمل...

إنّ المجموعة القصصيّة (الرّصيف النّائم) تجسيد صارخ لملحمة الثورة الجزائرية بكلّ ما تحمله من أبعاد ووقائع وأحداث، وصورة لنضال الشعب الجزائري وكفاحه، وهذا دليل على التزام القاصّة "زهور ونيسي" بالقضيّة الوطنيّة، وهو التزام تجلّى أيضا عند الكاتب "الطاهر وطّار" في قصته (اليتامى)، من خلال مساندته للكفاح والالتحام بمسيرة الطبقات العمالية.

وفي قصته (رسالة) نجده أيضا ملتزما بالخطّ الثوري النّضالي، فبطل هذه القصّة شخص يدعى "المنجي"، يعيش في الحياة السريّة مطاردا من طرف القوّات المحلّيّة، على أعماله

التخريبيّة ضدّ الفرنسيين، فهو لا يشتغل بالسياسة، كما قال ذات يوم لصديقته "ياسمينة"؛ لأنّ هذا منطلق برجوازي، إنّما فقط يناضل، ولكي يبلغ المرء درجة النِّضال، ينبغي أن يعرف أوّلا لماذا يناضل[23].

2.3 القصّة القصيرة الجزائريّة والواقع الاجتماعي:

إنّ الأديب الحق هو من يرنو إلى مجتمعه ويتحسسّ أوجاعه، فيعمد إليها، ويعيشها كما لو أنّها تعنيه هو، ويحدِّق فيها برؤياه الدّاخليّة كأفكار ووقائع وهموم، فتأتي الكتابة تبعا لذلك، وقدر اغترفها من بيئته ولوّنها بأصباغها، فهو عندما يقوم بالعمل الفنّي إنّما يحاول «إحياء العالم الّذي لا حياة فيه ونقله من أشكاله الثابتة المتردّدة إلى أشكال تتجدّد»[24]، والقاص الجزائري واحد من هؤلاء الأدباء، الّذين صوّروا الواقع المعاش قبل وبعد الاستعمار، لإحساسه الفطري بمعاناته وآلامه.

لقد تجاوب كتّاب القصّة القصيرة الجزائريّة مع مآسي مجتمعهم، وكان الفقر واحدا من اهتماماتهم الرئيسة، الّذي كان سببا للكثير من المشاكل الاجتماعيّة كالأرض والسكن والهجرة وغيرها، يؤكِّد ذلك قول "عبد المالك مرتاض": «فما هذه المشاكل الاجتماعيّة في حقيقتها إلاّ ثمرة من ثمرات الفقر الجاثم، والحاجة المقيمة، فلا ينبغي أن نتحدثّ عن مشكلة السكن الضيِّق أو السكن المنعدم أصلا، إلاّ بمثول الفقر ووجوده، كما لا ينبغي أن نتحدثّ عن مشاكل النقل في المدن، أو فيما بينها، إلاّ بحضور الفقر أساسا،فإن أضفنا الوهم إلى الهجرة فإنّ حضور الفقر يكون أشدّ إمضاضا وأقوى وجودا، إذ كان كثير من المهاجرين لا يهاجرون من وطنهم إلاّ ابتغاء دخلهم، إن كان لهم دخل أصلا، والحصول على دخل ما، إن لم يكن لهم من ذلك شيء قبلا»[25].

وفيما يلي نستعرض بعض القضايا الاجتماعيّة، الّتي تطرّقت إليها القصّة الجزائريّة القصيرة:

- تيمة السكن:

من الكتّاب الجزائريين الّذين عالجوا موضوع السكن "مصطفي فاسى" في (الأضواء والفئران)، و"أحمد منور" في (هلال)، وكان لكلِّ قاص طريقته في تناوله لهذا

الموضوع، على الرغم من أنّهم يلتقون في رسم صورة قاتمة لظاهرة البحث عن المسكن في مجتمعنا الجديد الباحث عن حياة أمثل.

يصوّر لنا الكاتب "مصطفى فاسي" من خلال قصته (الأضواء والفئران) شخصية المعلِّم الفقير، الّذي يحاول البحث عن مسكن لائق، لكن دون جدوى، فمرتبه الزهيد حال دون حصوله على مسكن لائق، إلى جانب حلمه بالزّواج، الّذي لم يتحقّق أيضا[26].

يحاول الكاتب "أحمد منور" في قصته (هلال) رصد تيمة السكن، من خلال شخصية "هلال"، الّتي تدور حولها الأحداث، إذ كان يتيم الأم وكانت له زوجة أب تكنّ له كلّ الكراهية والحقد، وهو يرى بعين واحدة، ويسقي الماء لأهل الحي ثمّ يتزوج من فتاة عرجاء، في هذه القصّة لا يطرح الكاتب موضوع السكن لذاته، وإنّما يعالج من خلالها علاقة زوجة الأب بربيبها، الّتي تتسِّم في الغالب بالعداوة والحقد، ولكن هذه العلاقة لا تبرز إلاّ عندما يتعلقّ الأمر بالسكن وحينما تتعرضّ زوجة "هلال" للإهانة، وينتهي بها الأمر إلى الطرد من السكن مع زوجها وصبيتها[27].

- تيمة الهجرة:

يعدّ موضوع الهجرة من القضايا الاجتماعيّة المعقدّة، الّتي اتّجها نحوه الكتّاب لمعالجته، حيث صوّرت لنا "زهور ونيسي" في (الشاطئ الآخر) معاناة الرّجل الجزائري خارج الوطن، ناقلة لنا صورة لما يعانيه المهاجر من وضع بائس في سبيل الحصول على لقمة العيش في بلاد الغربة، حيث يشعر بطل قصتها "صالح" بالاختناق لضيق السكن، ممّا سببّ له قلقا نفسيّا، يقول: «كم هي قذرة...هذه الأحياء ومجنونة، وهذا البيت بالخصوص، إنّه جحر فأر، ليس غير...»[28]، فالكاتبة لا تفصل بين التزامها النّضالي إزاء القضية الوطنيّة أو التزامها النِّضالي إزاء القضايا الاجتماعيّة.

وعالج "عبد الحميد بن هدوقة" هذا الموضوع في أربع من قصصه، هي: (الرسالة)، و(المغترب)، و (الكاتب) ،(ثمن المهر).

تدور أحداث قصّة (الرسالة) حول الشاب "الطيب"، الّذي اضطرّ للهجرة للعمل والعودة لخطيبته، لكن النهاية كانت معاكسة لذلك، حيث تزوّج من فرنسية، فحطمّ

نفسية والديه وحلم خطيبته "سعدية"، فـ «الهجرة خلقت صراعا بين الأنا والآخر وجعلت الفرد يعيش في حالة من اليأس والشعور بالانفصال عن المحيط الطبيعي الآمن»[29].

ويصوّر في قصته (ثمن المهر) ظاهرة اجتماعيّة أعاقت استمرار الحياة بشكل عادي، ممّا اضطرّ كثيرا من شبابنا إلى الهجرة من أجل ضمان العيش، وخلال هذه المغامرات يجابه المهاجر أحداثا وأهوالا عديدة.

فـ "عابد" "شاب من عائلة معوزة وفقيرة، يحب "زليخة" حبّا جنونيّا، ولكن والدها اشترط مهرا لا يستطيعه "عابد"، فلم تبق هناك طريق يسلكها للحصول عليه والفوز بـ "زليخة" إلاّ الهجرة الى فرنسا باحثا عن المهر في أحد المعامل الفرنسية[30].

يصاب "عابد" في الأرض الفرنسية بعلّة السلِّ القاتلة، ليقضي نحبه هناك في المستشفى غريبا عن وطنه، حيث حضر المهر وغاب "عابد" إلى الأبد.

ما يلاحظ من خلال إطلالتنا على بعض النماذج القصصيّة لـ "ابن هدوقة" أنّه لم يشذ عن المسار الأدبي العربي عموما والجزائري على وجه الخصوص، فارتباطه بواقع مجتمعه المتأزِّم جعل قضايا هذا المجتمع وواقعه مادة خام ينحت منها أعماله، فيصوِّر الأوضاع المزريّة، الّتي يعاني منها الفرد، ويعبِّر عن الظروف القاسية، والتفاوت الطبقي، وهو في كل ذلك يحاول أن يكون واقعيّا، حتى وإن اختلفت مستويات الطرح والمعالجة، بين واقعيّة عادية ترصد الحياة، ويغلب عليها الحياد، فلا تحُسم برأي[31].

يتعرضّ "مولود" بطل قصة (المغترب) لـ "ابن هدوقة" لصور من الإذلال والمعاملة السيّئة والطرد من الشرطة الفرنسية، معاملة تحكمها النظرة العنصريّة والحقد على الشخصية الجزائريّة، ويحدِّد سلوك الفرنسي تجاهه[32]، يقول: «إنّهم يسلكون معنا سلوكهم إزاء المجرمين، بيد أنّ الجزائر مستقلة منذ سنوات والحرب بيننا وبينهم قد انتهت، ومع ذلك فالجزائري هو الجزائري في نظرهم»[33]. وأخيرا تطرد الشرطة المهاجر "مولود" من فرنسا، دون أن تترك له فرصة يأخذ فيها أمتعته وأمواله.

وتناول "مصطفى فاسي" الموضوع نفسه في قصتين اثنتين هما: (مغترب) و(العائدون)، حيث ركّز في الأولى على مأساة مهاجر قضى قرابة ثلاثين عاما في فرنسا

وعندما أصبح شيخا وضعُف عوده، انتابته رغبة العودة إلى الوطن، لكن هواجسه الباطنية تلِّح عليه أن لا يعود حيث ليس له مكان محدّد يذهب إليه إذ لا أقارب له بعد أن قطع صلته بهم فعند مَن سيقيم؟ ومن سيستقبله؟ وكيف ستكون حياته في جوٍّ جديد لم يعد يعرف عنه شيئا، وكيف له أن ينشد السّعادة في وطن لم يقدِّم له شيئا ساعة المحنة.

وفي (العائدون) يتحدّث عن عودة اللاجئين الجزائريين من مهاجرهم السياسيّة سنة اثنتين وستين وتسعمائة[34].

يحمل المهاجر في القصّة القصيرة الجزائريّة «قضية شعبه، ومن البداية نلاحظ أنّ الهجرة كانت إلى فرنسا البلد المستعمِر سابقا»[35]، ففي قصّة (عودة المهاجر) لـ "أحمد بن اسماعيل" يحتقر صاحب العمل الفرنسي المهاجر "يوسف" ويحقد عليه، فيبحث "يوسف" في قرارة نفسه عن سبب لهذا التصرّف، فلا يجد من مبرِّر سوى أنّ صاحب العمل الفرنسي لا يزال يعامله بمنطق المستعمِر الغالب، يقول: «ولكن له الحقّ أيضا أن يضربني في هذه الظّروف لأنّني وسط مجتمعه الّذي حاربته بالأمس بالونشريس والأوراس وجرجرة»[36].

من هذا المنطلق يتّخذ "يوسف" موقفه ويحسّ أكثر بهويته فيتحدّى الفرنسي، ويسرع بالعودة إلى وطنه يدفعه إحساسه بشخصيته الجزائريّة وماضيه الوطني.

وفي قصّة (دم الهجرة) لـ "محمّد سليني" يتعرضّ "عمّار" إلى المعاملة السيِّئة بصورة أبشع، إنّه أمام شخصية أكثر شراسة، أمام صاحب العمل "روجي"، الّذي يحسّ بالحاجة الملحة إلى إطفاء نار الحقد المتأجِّجة في صدره، فيتلذّذ بإهانة المهاجر "عمّار". وبذلك يمثِّل المهاجر في القصّة شعبه ويحمل قضية وطنه، فإمّا أن يقتله الفرنسي أو يسيء معاملته أو يطرده.

ينتهي أغلب المهاجرين نهاية مأسوية، وقد ينتهي المهاجرون نهاية تفاؤلية، لكنّهم قليلون، ويتمثّل تفاؤلهم في أنّهم عادوا وبين حناياهم قوّة هائلة من الحماس لخدمة

الوطن، منهم مهاجران عادا متحمسين لخدمة الأرض هما "عمر" في قصّة (الضائعون) لـ "عبد المالك مرتاض" و"الطاهر" في قصة (الأرض) لـ "أحمد بلحسن"[37].

وبذلك يكون القاصان "مرتاض" و"بلحسن" قد وجدا الحلّ السليم لمشكلة الهجرة في الجزائر، وهو «أن يقبل المهاجر على خدمة الأرض الشاسعة، الّتي بها وحدها يكمن حلّ مشكلة الهجرة والقضاء على البطالة والفقر اللّذين كان سببا فيها»[38].

- تيمة الأرض:

إنّ العلاقة الموجودة بين الإنسان والأرض هي علاقة الرّوح بالجسد، فالأرض بالنِّسبة للإنسان مصدر الرزق والعطاء لما فيها من خيرات، لذلك كانت مصدر إلهام للعديد من الأعمال الأدبيّة الحديثة الراقية، والشعب الجزائري كغيره من الشعوب صمد أمام الاحتلال مدافعا عن أرضه بروحه وجسده، فالقيمة الأكثر أهميّة بالنِّسبة للشعب المستعمَر هي الأرض؛ لأنّها تؤمّن الخبز وتضمن الكرامة.

ونجد مرة أخرى أنّ كتّاب القصّة القصيرة الجزائريّة يلتقون حول هذا المحور إلاّ أنّهم يختلفون في درجة هذا الحضور، ويعدّ "أحمد منور" في الطليعة، حيث تناوله في قصتين اثنتين داخل مجموعة واحدة بعنوان (قلبتان من شعير)، و(الأرض لمن يخدمها).

وقد أبرز القاص في القصّة الأولى مدى الاضطهاد والذلّ اللذان كانا مفروضين على الفلاّح الجزائري الفقير المحروم من أرضه مجسِّدا ذلك في شخصية "المكي"، الّذي ينتهي بالثورة على الإقطاعي وابنته، الّتي تستخفّ بالعامل الأجير إلى درجة اعتباره كأيِّ حيوان يركب، لكن هذه الثورة تنتهي به في السجن.

واهتمّ الكاتب "الحبيب السائح" بموضوع الأرض في قصتين اثنتين (السنابل)، الّتي صوّر فيها معاناة الفلاّح من تسلّط الحاج "قدور" وقمعه له ولفلاحين آخرين، حيث قضى هذا الفلاّح نحبه يخدم الأرض مستسلما للمرض راضيا بقضائه وقدره، فظلّ يبطش ويكدح في حقول الحاج "قدور" وكأنّه غير عليل إلى أن يموت، ويتبرعّ الحاج "قدور" بخمسين دينارا على أسرته. فهذه القصة صوّرت لنا مدى اتِّساع الهوة الّتي تفصل بين النّاس فتجعل منهم أغنياء وفقراء وعاملين ومستغلين لهم[39]، كما سلطّت الضوء على

التحوّل الاجتماعي، الّذي شهدته الجزائر بصدور ميثاق الثورة الزراعية، الّذي أعاد للفلاّح كرامته.

مثّلت الأرض جانبا أساسيّا في قصص "عبد الحميد بن هدوقة"، فكانت محورا متصِّلا بمفهوم الحياة والبقاء ونقيضا للفقر والموت[40]، ففي قصّة (الرجل المزرعة) يحتدم الصِّراع بين فلاح جزائري أجير ومعمر أجنبي استحوذ على أراض شاسعة، وسخّر سكان القرية خدما له، يقول المعمِّر: «أنا المسؤول الوحيد على المزرعة، على الأطفال والدجاج، على النساء والبقر، على الرجال والبغال، على المزرعة كلّ تلك المزرعة»[41]، ففي القصّة سخرية حادّة من الفلاحين الجزائريين واحتقارهم من المعمِّرين.

فالصِّراع عندما يكون بين فلاح جزائري فقير ومعمِّر أجنبي مستغِّل فإنّه يحلو ويسمو أدبيّا، لوجود ذلك بكثرة في الواقع التاريخي، وككل قضية من القضايا، الّتي تمس كيان المجتمع أثرّت قضية الأرض في القاصين الجزائريين، الّذين لم يتغيّبوا عن الواقع فصورّوه بأقلامهم وجسّدوه بكل واقعيّة صادقة دون تزييف أو تكليف، وهدفهم الأسمى تغيير أسلوب العيش الّذي كان يسوده الجهل والتخلّف ورسوخ الأساطير والخرافات، الّتي عمل الاستعمار على نشرها لطمس الشخصية الجزائريّة ومعالم الحياة الثقافيّة، فهذه النماذج أمثلة شاهدة على العلاقة المتينة بين القصّة القصيرة والواقع الاجتماعي.

أمّا في قصّة (رمانة الساقية) فإنّ الأرض تتحولّ إلى بعد دلالي يمثِّل مقاومة الاجتثاث وحماية الذاكرة والتّاريخ[42].

ويحاول في قصته (الفلاّح) أن يصف ظاهرة اجتماعيّة عاشها الفلاّح الجزائري؛ ظاهرة البحث عن أرض فلاحية يزرعها ويستغني عن الكراء أو الإعارة.

تروي القصّة حكاية "الفلاّح" الحالم بالسّعادة بعد أن بدأت بوادر الخير تلوح من بعيد وتبشِّره بزوال زمن الجوع والفقر، «نظر الفلاّح مليّا إلى الحقل المكتظة سنابله محاولا أن يقدِّر كم يغله من صاع، ثمّ خاطب زوجته قائلا في اعتباط:

-مات قتلته هذه السنابل ! فردّت زوجته سائلة في حيرة:

-مَن الّذي مات ؟ ! فضحك ضحكة خفيفة والتفت إليها قائلا مطمئنا:

الجوع...الجوع هو الّذي مات! لن نراه في هذه السنة. فقالت الزّوجة ضاحكة وقد زالت عنها الحيرة: -ظننت أنّ أحد السكان مات»[43].

إلاّ أنّ ظروفه القاسية وقلّة عتاده وحاجة أمثال هؤلاء إلى إصلاح زراعي عاجل من أجل إقامة فلاحة عصرية منتجة، وقفت حاجزا دون إتمام الفرحة، وكمال السّعادة عند هذا الفلاّح الفقير وأسرته، لم ينعم ولو لوقت قصير فقط بالشبعة، الّتي ظلّ يحلم بها أيام الاستعمار، وحتّى بعد الاستقلال وهو ينعم بالحريّة؛ لأنّ «الأفق الغربي تراكمت عليه الغيوم، أخذت أشعة الشّمس تصل إلى الأرض في اصفرار، بدأ الجوّ يثقل، الحرارة اليابسة أخذت تندي، الغيوم في الأفق الغربي بدأت تتكثفّ، اللّون الرمادي مال إلى السواد.

الفلاّح ينظر إلى الأفق الغربي، الزّوجة تلمح على وجه زوجها علائم الحيرة فتتساءل:

-أظنّ أنّ هذه الغيوم تتحولّ إلى مطر؟

-اللهمّ احفظنا واحفظ فلاحتنا»[44].

وما هي إلاّ لحظات حتّى «صار الحقل كلّه هشيما ملطخا بالطين، لم تبق فيه سنبلة قائمة، انتهى الصّيف في يومه الأوّل وانتهى الأمل وعاد الفلاّح إلى الخيمة خائر القوى يملأ الحزن نفسه والمرارة قلبه»[45].

هكذا يأخذ الكاتب القصّة عن واقع وأحداث واقعيّة، فتتحولّ هنا إلى منظومة متواليات فنيّة لعب الخيال فيها دوره الدرامي.

- تيمة البطالة:

تجلّت هذه التيمة عند العديد من القصّاصين الجزائريين، منهم القاص "بشير خلف" في قصته (الرّحيل)، الّتي يقوم فيها برصد مجمل تحوّلات الواقع الاجتماعي وتناقضاته، حيث تحكي قصّة عودة شاب جامعي -يحمل شهادة عليا من إحدى الجامعات الأجنبيّة- إلى الوطن فلا يجد فرصة عمل تناسب مؤهّلاته العلميّة، بحيث يفتح الكاتب قصته بوصف مسهب للحالة النّفسيّة الّتي هو عليها بطل قصّته، شاب عاد من الغربة يقيم مع أمّه الّتي أنهكها المرض، تحاول إقناعه بالبحث عن عمل ليتمكّن من الزّواج، يخرج من المنزل على أمل إيجاد منصب عمل في إحدى المؤسسات الوطنيّة أو الإدارات الحكومية،

فيجد أمامه مجموعة من الشباب ينتظرون دورهم لتقديم ملفّاتهم إلى الموظّف، لمّا يأتي دوره يستقبله الموظف ، ويخاطبه بنبرة تجاهلية، واضعا إيّاه أمام الأمر الواقع حول سوق العمل في البلد[46].

وبينما هو يتحاور مع الشاب رنّ الهاتف فينشغل رئيس المصلحة بالردّ على المكالمة، وأثناءها راح الشاب يسترجع ذكرياته أيّام الدِّراسة، فيتذكّر الفتاة الأجنبيّة الّتي شغف بحبِّها، وشغفت بحبِّه؛ لأنّها وجدت فيه الهمّة العالية، والإرادة القويّة، ولكن حبّه لوطنه، وشوقه لأمِّه المريضة حال دون اكتمال العلاقة بينهما، وكانت المفاجأة أنّ الوطن الّذي أحبّه سوقُ العمل فيه أغلقت أبوابها في وجهه.

وهكذا نجد أنّ موضوع قصّة (الرّحيل) يرتكز إلى «واقع اجتماعي وإنساني، أتاح للقاص مجالاً لإجادة التّحليل النّفسي للبطل، والكشف عن أوضاعٍ اجتماعيّة ومهنية بلقطاتٍ تكشف واقع تلك الأوضاع»[47].

فالأديب الحقيقي هو الّذي ينصرف انصرافا كليّا إلى الواقع يغرف منه مشكلاته، فيعالج تجارب تنحت مادتها من حياة الفقراء وهمومهم.

4. خاتمة:

لعلّ ما يمكن استخلاصه في الأخير هو تثبيت جملة من النتائج ، يمكن توضيحها في النقاط الآتية:

- نشأت القصّة القصيرة الجزائريّة متأخِّرة بالنِّسبة لنظيرتها في المشرق العربي بسبب الاستعمار، الّذي وضع الثقافة في وضع شلّ فاعليتها، ثمّ تطوّرت نتيجة احتضانها لهموم الإنسان الجزائري وقضاياه المختلفة.

- لقد عبّرت القصّة القصيرة الجزائريّة عن تضاريس الواقع بكلّ تفاصيله، سواء أكان ذلك بالرّجوع إلى فترة الثورة المسلحة، أو الغوص في الحياة المعيشية الجديدة، الّتي تجلّت ملامحها من خلال التغيّرات الجديدة، الّتي طرأت على الحياة السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة.

- تعدّدت تيمات القصّة القصيرة الجزائريّة، حيث تناولت الثورة كماض، والثورة كحاضر، بالإضافة إلى المشاكل الاجتماعيّة (السكن، الهجرة...)، الّتي برزت مع الأحداث الجديدة، والتطوّرات التّي حدثت في المجتمع الجزائري.

- عدّ موضوع الثورة التّحريريّة الأرض الخصبة لتطوّر القصّة الجزائريّة القصيرة، بل البداية الحقيقيّة لظهور القصّة الفنّيّة الجزائريّة.

5. الهوامش:

[1]- رينيه ويليك، أوستن وارين، نظرية الأدب، تر: محي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دط، بيروت ، دت، ص 131.

[2]- عبد الله الركيبي، القصّة الجزائريّة القصيرة،الدار العربيّة للكتاب، ط3، تونس، ليبيا، 1977م، ص 10.

[3]- المرجع نفسه، ص 10.

[4]- عبد الله الركيبي، الأوراس ودراسات أخرى، الشركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، دط،الجزائر، 1982م، ص 144.

[5]- عبد المالك مرتاض، فنون النثرالأدبي في الجزائر(1931-1954)، ديوان المطبوعات الجامعيّة، ط1،الجزائر، 1983م، ص ص 163/162.

[6]- ينظر، أحمد طالب، الأدب الجزائري الحديث(المقال القصصي والقصّة القصيرة)، دار الغريب، دط، دت، ص 9.

[7]- عبد الله الركيبي، القصّة الجزائريّة القصيرة، ص 11.

[8]- ينظر، عايدة أديب بامية، تطوّر الأدب القصصي الجزائري (1925-1967م)، تر: محمّد صقر، ديوان المطبوعات الجامعيّة، دط، الجزائر، 1982م، ص 306.

[9]- محمّد السعيد الزاهري، الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير(مجموعة قصصية)، دار الكتب، ط3، الجزائر، 1983م، ص 10.

[10]- ينظر، مصطفى فاسي، القصّة الجزائريّة القصيرة، مجلة الثقافة، ص 199.

[11]- حاج محجوب عرايبي، دراسات في القصّة القصيرة الجزائريّة المعاصرة، منشورات إبداع، ط1، 1993م، ص 58.

[12]- محمّد الطمّار، تارخ الأدب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعيّة، دط، الجزائر، 2006م، ص 523.

[13]- عبد الله الركيبي، الأوراس ودراسات أخرى، ص 148.

[14] - محمّد مصايف،القصّة القصيرة العربيّة الجزائريّة في عهد الاستقلال، الجزائر، دط، 1982م، ص15.

[15] - ملفوف صالح الدين، بيبليوغرافيا القصّة الجزائريّة القصيرة النّشأة والتطوّر، مجلة الأثر، ورقلة، العدد 7، 2008م، ص 158.

[16] - ينظر، أحمد طالب، الأدب الجزائري الحديث(المقال القصصي والقصّة القصيرة)، ص 10.

[17] - ينظر، عايدة أديب بامية، تطوّر الأدب القصصي الجزائري (1925-1967م)، ص 314.

[18] - عبد الله الركيبي، القصّة الجزائريّة القصيرة، ص 84.

[19] - عايدة أديب بامية، تطوّر الأدب القصصي الجزائري (1925-1967م)، ص 306.

[20] - نورسليمان، الأدب الجزائري في رحاب الرّفض والتحرّر، دار الأصالة، دط، 2009م، ص 307.

[21] - أحمد رضا حوحو، مع الحمار الحكيم، الشركة الوطنيّة، دط، الجزائر، دت، ص 39.

[22] - عبد الله بن الحلي، القصّة العربيّة الحديثة في الشمال الإفريقي، ص 199.

[23] - ينظر، بلقاسم عبد الله، وطار ونضال الكلمة، 10أكتوبر 2010م، 15نوفمبر 2018م، www.diwanalarab.com

[24] - إيليا سليم الحاوي، نماذج في النّقد الأدب وتحليل النّصوص، دار الكتاب اللبناني، ط3، بيروت، 1969م، ص44.

[25] - عبد المالك مرتاض، القصّة الجزائريّة المعاصرة، دار العرب، ط4، 2007م، ص 23.

[26] - ينظر، مصطفى فاسي، الأضواء والفئران، الشركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 1980م.

[27] - ينظر، أحمد منور، قصة هلال، الجزائر، 1971م.

[28] -زهورونيسي، قصة على الشاطئ الآخر، الشركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، دت، ص 88.

[29] - عمر عيلان، القصّة القصيرة عند عبد الحميد بن هدوقة (قراءة موضوعاتية)، 2016م، 3 جويلية 2018م، www .benhedouga.com

[30] - ينظر، عبد الحميد بن هدوقة، مجموعة الأشعة السبعة، الجزائر، 1981م، ص53.

[31] - ينظر، إبراهيم عبّاس، عبد الحميد بن هدوقة والفنّ القصصي، 2016م، 2 جوان 2018م، www.benhedouga.com

[32] - ينظر، عبد الحفيظ حرزلي، المهاجر في القصّة العربيّة، 8 جويلية 2015م، 20 ديسمبر 2018م، http : //www.univ-soukahras.dz

[33] - عبد الحميد بن هدوقة، قصّة المغترب، الشركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، الجزائر، دت، ص 63.

[34] - ينظر، مدخل إلى القصّة الجزائرية، 16 أفريل 2016م، 2 أكتوبر 2018م، https :www.ouarsenis.com

[35] - عبد الحفيظ حرزلي، المهاجر في القصّة العربيّة، 8 جويلية 2015م، 20 ديسمبر 2018م، http : //www.univ-soukahras.dz

[36] - أحمد إسماعيل: عودة مهاجر، جريدة الشعب، الجزائر، العدد 2457 ، 1971م، ص10.

[37] - ينظر، عبد الحفيظ حرزلي، المهاجر في القصّة العربيّة، 8 جويلية 2015م، 20 ديسمبر2018م، http : //www.univ-soukahras.dz

[38] - المرجع نفسه.

[39] - ينظر، مدخل إلى القصّة الجزائرية، 16 أفريل 2016م، 2 أكتوبر2018م، https :www.ouarsenis.com

[40] - ينظر، عمر عيلان، القصّة القصيرة عند عبد الحميد بن هدوقة (قراءة موضوعاتية)، 2016م، 3 جويلية 2018م، www .benhedouga.com

[41] - عبد الحميد بن هدوقة، الرجل المزرعة، الشركة الوطنيّة للنّشروالتوزيع، 1980م، ص 23.

[42] - ينظر، عمر عيلان، القصّة القصيرة عند عبد الحميد بن هدوقة (قراءة موضوعاتية)، 2016م، 3 جويلية 2018م، www .benhedouga.com

[43] - نقلا عن إبراهيم عبّاس، عبد الحميد بن هدوقة والفنّ القصصي، 2016م، 2 جوان 2018م، www.benhedouga.com

[44] - نقلا عن المرجع نفسه.

[45] - نقلا عن المرجع نفسه.

[46] - ينظر، بلمشري مصطفى، قراءة في مجموعة ظلال بلا أجساد للقاص الجزائري بشير خلف، الحوار المتمّدن، 2007/10/23.

[47] - المرجع نفسه.

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊